نجوى التِّمثال[1]

أيها المفترشُ الصَّخرةَ يشُدُّ ذراعيه أقوى الشَّدِّ كأنَّما يريد أن يقتلع الصَّخرةَ فيهما :

مُتَنَاهِضاً بصدره ؛ ليَدلَّ على : أنَّه وإن رَبضَ ؛ فإن الوثبةَ في يديه .

مُتَمَطِّياً بصُلْبِه ليُشيرَ من جسمه الهادئ إلى معانيه المفترسة .

مُقْعياً على ذَنَبه ، ومتحفِّزاً بسائره ، كأنَّه قوةُ اندفاعٍ تَهُمُّ أن تَنْفلِتَ من جاذبيةِ الأرض .

وأنتِ أيَّتها الهيفاءُ تمثِّلُ الإنسانيَّةَ المتمدنة في نَحافتها ، وهي كهذه الإنسانيَّة ضاربةٌ بذراعَي أسدٍ في غِلَظ مِدْفعين . . . .

حكيمة في النَّظر كأنَّما تَمُدُّ في سرائر الأمم نظرةَ المتأمِّل ، ولكنَّ يدها كيدِ الحكمةِ السِّياسيَّة على تركيبٍ عقلي تحتهُ المخالب . . .

ساكنة كأنَّها تمثالُ السَّلام على : أنَّها في جِوار الأسد كالسَّلام بين الشُّعوب : تَلْمَح فيه إنسانَ العالم ، ووحش العالم . . .

يا أبا الهول !

أأنتَ جوابٌ عن ذلك اللُّغز القديم ؛ الذي هو كلامٌ لا يتكلَّم ، وسكوتٌ لا يسكت .

والذي أشار برأسِ الإنسان على جسم اللَّيث أنَّه قوةٌ عمياءُ كالضَّرورة ، ولكنَّها مُبْصِرَةٌ كالاختيار .

والَّذي أخرج مِنْ فَنَّيْ الغريزة والعقلِ فنّاً ثالثاً لا يزال في الأرض ينتظرُ المرأةَ التي تلد إنساناً عِظامهُ من الحجَر ؟

وأنتِ يا مصر !

---

(١) تمثال نهضة مصر الذي صنعه المثال مختار رمزاً لهذه النهضة ، وهو أبو الهول متحفزاً ، تقف إلى جانبه امرأة . (ع) .

أواقفةٌ ثَمَّةَ للشَّرح ، والتَّفسير ، تقولونَ للمصريِّ : إنَّ أجدادك يسألونك من آلاف السِّنين بهذا الرَّمز : ألا معجزةٌ من القوَّة تمطُّ عَضَلاتِ الحجَر ؟

ألا بَسْطَةٌ من العلم تجعلُك أيُّها المصريُّ وكأنك رأسٌ لجسم الطَّبيعة ؟

ألا فنٌّ جديدٌ ترفعُ به أبا الهولِ في الجوِّ فتزيده على قوَّة الوحشِ ، وذكاء الإنسان خِفَّةَ الطَّير ؟

أم تقولين للمصريِّ : إنَّ أجدادَك يُوصونكَ بهذا الرَّمز أن تكونَ كالظَّهرِ الأسديِّ ، لا يُركَب مَطَاه ، وكالرَّأسِ الإنسانيِّ ، لا تُقيَّد حريتُه ، وكالرَّبْضَةِ الجبليةِ لا تَسْهُلُ إزاحتُها ، وكالإبهام المركَّب من غامضَين ، لا يتيسر به عَبَثُ العابث ، وكالصَّراحةِ المجتمعةِ من عنصرٍ واحد ، لا يغلَطُ في حقيقتها أحد ؟

أم تقولين يا مصر ! إنَّ تفسيرَ أبي الهول الأولِ : أن النَّهضةَ المصريَّةَ إنَّما تكون يوم تُخرجُ البلاد منْ يصنع أبا الهول الثَّاني ؟

* * *

تمثالُ النَّهضة ، أم صفحةٌ من الحجر قد صَوَّر الشَّعبُ فكرَه عليها ، ودوَّن فيها إحساسَه بتاريخه ، ووصف بها إدراكَه حياةَ المعاني السَّامية ؟

أم هو كتابةُ فصلٍ من التَّاريخ بقلم الحياةِ ، وعلى طريقةٍ من بلاغتها ، خشيتْ عليه الفناءَ ، فدوَّنته في أسلوبٍ من أساليب البقاء الحجريِّ الصَّلْد ؟

أم ذاك يومٌ من أيَّام الأمَّة أحاله الفنُّ من زمنٍ إلى مادةٍ ؛ ومن معنىً إلى حسٍّ ، ومن خبرٍ إلى مَنْظَرٍ ، وكانوا يتكلَّمون عنه فجعله الفنُّ يتكلَّم عن نفسه ؟

أم هو تعبيرٌ عن تلك المعاني ؛ التي خلقتْها نفوسُ هذا الجِيلِ ، تخاطبُ بهِ النُّفوسَ الآتيةَ لِتُتَمِّمَ عليها ، وتضيفَ فيه إلى المعنى سرَّ المعنى ، وتضعَ الكلمةَ الإنسانيَّةَ على لسان الطَّبيعة تتكلَّم بالتِّمثال ، كما تتكلَّم بالجِيل ؟

أم تركيبٌ سياسيٌّ إذا فسَّرتْه اللُّغةُ كان معناه أنَّ الثَّابتَ إذا احتاج إلى من يثبته . . . فلن يمحوَهُ من ينكرُه ، وأنَّ الظَّاهرَ إن احتاج إلى من يَدلُّ عليه . . . فلن يُخفِيَهُ من لا يراه ؟

* * *

بل أراكَ لا هولَ فيك يا أبا الهول الجديد !

أفذاكَ من رقَّةٍ داخلتْكَ ورحمةٍ جاءَتك من مَسِّ يدِ المرأة . . . ؟

أم الهولُ اليومَ قد أصبح في العقل والعاطفة ، ومدُّ العينِ النَّسائيَّة إلى بعيد . . . ؟

أم لا يتمُّ في هذه المدينة رأسُ رجلٍ وجسمُ سَبُعٍ إلا . . . إلا بأنامل امرأة ؟

ألا من يُعْلِمني : أهذه المرأةُ منكَ هي تهذيبٌ للإنسان ، والوحش ، أم تكملةٌ عليهما ؟!

ألا من يأتيني بالحكمةِ فيك مِنْ وضْع الرَّجلِ القويِّ رأساً ، ولا جسم ، والأسدِ المفترسِ جسماً ولا رأس ، ثُمَّ لا يكمل دونهما إلا المرأةُ وحدها ؟!

إنَّما كنتَ يا أبا الهول ! لغزَ الصَّمت ، فلما أُضيفت المرأةُ إليك أصبحتَ لغزَ النُّطق . . . فيا للْهول !

* * *